

الفكر الإلحادي وكيفية مواجهته

بقلم الشيخ أحمد إسماعيل الفشني

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي أَوْدَعَ فِي الْكَوْنِ آيَاتٍ لِلْمُتَفَكِّرِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي جَاءَ بِالنُّورِ الْمُبِينِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ يَوْمَ الدِّينِ.

الفكر الإلحادي داءٌ يَهْدِدُ اليَقِينَ وَيُزْعِزُ الفِطْرَةَ
أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ،

لَيْسَ الْإِلْحَادُ فِكْرَةً حَدِيثَةً، بَلْ هُوَ دَاءٌ قَدِيمٌ يَتَجَدَّدُ بِتَغْيِيرِ الْأَزْمَانِ. إِنَّهُ فِكْرٌ يَضْرِبُ فِي الصَّمِيمِ يَقِينِ الْفِطْرَةِ بِوُجُودِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَيَعْمَلُ عَلَى نَزْعِ كُلِّ مَعْنَى سَامٍ لِلْوُجُودِ. لَقَدْ أَكَّدَ سَيِّدُنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْفِطْرَةَ الْأَصِيلَةَ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ، فَقَالَ: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُؤَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ". فَالْأَصْلُ فِي الْإِنْسَانِ هُوَ التَّوْحِيدُ، وَالْإِلْحَادُ إِنَّمَا هُوَ انْحِرَافٌ يَطْرَأُ عَلَى الْقَلْبِ.

بَدِيهِيَّةُ الْفِطْرَةِ فِي قَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْفِطْرَةُ حِكْرًا عَلَى الْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ، بَلْ هِيَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِ الْبُسْطَاءِ. يُحْكِي أَنَّ أَعْرَابِيًّا سُئِلَ: "بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟" فَقَالَ قَوْلَتُهُ الشَّهِيرَةُ الَّتِي صَارَتْ مَثَلًا فِي قُوَّةِ الْحُجَّةِ الْفِطْرِيَّةِ: "الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَالْأَثَرُ يَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ، وَبَحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ، أَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؟!". فَهَذَا هُوَ صَوْتُ الْفِطْرَةِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى مُقَدِّمَاتٍ مُعَقَّدَةٍ.

وَقَدْ أَوْضَحَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ انْكَارَ الْخَالِقِ هُوَ خُرُوجٌ عَنِ نِظَامِ الْعَقْلِ وَالْبَدَاهَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (الطور: 35-36).

إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُلَخِّصُ مِنْهَجَ الْمُوَاجَهَةِ: لَا بُدَّ لِلْوُجُودِ مِنْ مُوجِدٍ، وَلَا بُدَّ لِلْخَلْقِ مِنْ خَالِقٍ، فَلَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَخْلُقَ نَفْسَهُ، وَلَا أَنْ يَخْلُقَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ.

بَيَانُ الْحَقِّ بِبَدَاهَةِ الْعَقْلِ: دَرَسُ مِنْ سَيِّدِنَا أَبِي حَنِيفَةَ

كَانَ سَلَفُنَا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ بَرَاهِينَ الْحَقِّ كَامِنَةٌ فِي كُلِّ نَاطِرَةٍ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى عُمُقِ الْفِكْرِ وَقُوَّةِ الْحُجَّةِ: مُنَاطَرَةُ سَيِّدِنَا الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَ قَوْمٍ مِنَ الْمُلْحِدِينَ.

لَقَدْ تَعَمَّدَ سَيِّدُنَا الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ التَّأَخُّرَ عَنِ الْمُوَعِدِ الْمُحَدَّدِ، فَلَمَّا حَضَرَ سَأَلُوهُ عَنْ سَبَبِ تَأْخِيرِهِ، فَقَالَ: "كُنْتُ مُشْتَغَلًا بِأَمْرِ عَجِيبٍ: إِنَّ سَفِينَةً مَشْحُونَةً بِأَنْوَاعِ الْبَضَائِعِ الْعَظِيمَةِ، جَاءَتْ فِي نَهْرٍ دِجْلَةٍ، وَسَارَتْ بِنَفْسِهَا، لَا مَلَّاحَ يَسُوقُهَا، وَلَا رُبَّانَ يَقُودُهَا، تَخْتَرِقُ الْأَمْوَاجَ وَتَسِيرُ مُسْتَوِيَةً بِمُفْرَدِهَا، حَتَّى رَسَتْ عَلَى الشَّاطِئِ ثُمَّ فَرَعَتْ بِنَفْسِهَا، ثُمَّ عَادَتْ لِمَتَمَلَّى دُونَ صَانِعٍ أَوْ مُدَبِّرٍ!"

فَصَاحَ الْمُلْحِدُونَ مُتَعَجِّبِينَ: "هَذَا مُحَالٌ! كَيْفَ لِسَفِينَةٍ أَنْ تَسِيرَ وَتُرْسِيَ بِهَذِهِ الدِّقَّةِ دُونَ صَانِعٍ وَمُدَبِّرٍ؟ إِنَّ هَذَا لَا يَقْبَلُهُ عَقْلٌ!"

فَعِنْدَهَا أَجَابَهُمْ سَيِّدُنَا الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ: "وَيَحْكُمُ! إِذَا كَانَ مُجَرَّدُ سَفِينَةٍ صَغِيرَةٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسِيرَ بِدُونِ مُسَيِّرٍ، فَكَيْفَ بِهَذَا الْعَالَمِ كُلِّهِ، بِسَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، وَشَمْسِهِ وَقَمَرِهِ، هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَقُومَ بِدُونِ خَالِقٍ وَحَافِظٍ وَمُدَبِّرٍ لَهُ؟!"

فَكَانَتْ حُجَّتُهُ هِيَ بَدَاهَةُ الْعَقْلِ وَشَهَادَةُ الْكَوْنِ، فَسَكَنُوا وَأَقْرَأُوا.

دَلَائِلُ الْكَوْنِ وَآيَاتُ الْحَقِّ

لَقَدْ مَلَأَ اللَّهُ الْكَوْنَ بِآيَاتٍ تُؤَكِّدُ وُجُودَهُ وَوَحْدَانِيَّتَهُ، فَالنَّظَرُ الْمُتَجَرِّدُ فِي الطَّبِيعَةِ هُوَ أَكْبَرُ رَدٍّ عَلَى الْإِلْحَادِ. يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: 190).

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟

إِنَّ أَقْرَبَ الْآيَاتِ إِلَيْنَا هِيَ أَنْفُسُنَا الَّتِي بَيْنَ جُنُوبِنَا. تَأَمَّلْ -أَخِي الْكَرِيمُ- فِي هَذَا الْجَسَدِ الْعَجِيبِ. الْقَلْبُ يَنْبِضُ مِائَةً أَلْفَ مَرَّةٍ فِي الْيَوْمِ دُونَ كَلَلٍ أَوْ مَلَلٍ، فَمَنْ أُوْدَعَ فِيهِ هَذِهِ الْقُوَّةُ؟ وَالْعَيْنُ تَرَى بِأَدَقِّ النَّقَاصِيلِ وَأَجْمَلِ الْأَلْوَانِ، فَمَنْ صَمَّمَ هَذِهِ الْعَدَسَةَ الرَّبَّانِيَّةَ؟ وَالِدِمَاعُ يَحْوِي مِنَ الْخَلَايَا وَالْوَصَلَاتِ مَا يَفُوقُ أَغْقَدَ الْحَوَاسِيِبِ فِي الْعَالَمِ، فَمَنْ نَظَّمَهُ وَدَبَّرَهُ؟ إِنَّهَا لَآيَاتٌ نَاطِقَةٌ بِعَظَمَةِ الْخَالِقِ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

وَفِي دَعْوَةٍ صَرِيحَةٍ لِلتَّفَكُّرِ فِي أَصْغَرِ الْمَخْلُوقَاتِ، يَقُولُ جَلَّ فِي عُلَاهُ:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الْعَاشِيَةِ: 17-20).

فَكُلُّ نِظَامٍ دَقِيقٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ، مِنْ دَوْرَانِ الْأَفْلَاقِ إِلَى نُزُولِ الْقَطْرِ، إِنَّمَا هُوَ شَاهِدٌ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ.

كَيْفِيَّةُ الْمُوَاجَهَةِ الْحَدِيثَةِ وَبَرَكَهُ الصَّلَاحِ

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ،

إِنَّ الْمُوَاجَهَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلْإِلْحَادِ تَبْدَأُ مِنْ دَاخِلِ الْبُيُوتِ، بِتَرْسِيخِ الْيَقِينِ وَغَرْسِ الصَّلَاحِ،
كَمَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ سَيِّدِنَا مُوسَى وَالْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِنْدَ بِنَاءِ الْجِدَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ
سُبْحَانَهُ:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (الكهف:
82).

إِنَّ صَلَاحَ الْأَبِ حَفِظَ كَنْزَ أَبْنَائِهِ فِي الْأَرْضِ. وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ مَعَ الْإِيمَانِ، فَصَلَّاحُنَا
وَاسْتِقَامَتُنَا هُمَا كَنْزُ الْيَقِينِ الَّذِي نُورِثُهُ لِأَبْنَائِنَا.
وَمِنْ أَعْظَمِ الْمُوَاجَهَاتِ:

* قُوَّةُ الْيَقِينِ وَالْعِلْمُ: إِنَّ مَنْ تَعَلَّمَ وَتَعَمَّقَ فِي عِلْمِ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، صَارَ كَالدَّرْعِ
فِي وَجْهِ الشُّبُهَاتِ. وَلِنَتَذَكَّرَ قِصَّةَ ذَاكَ الرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَى سَيِّدِنَا الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ
يَسْأَلُهُ: "كَيْفَ يَعْذِبُ اللَّهُ إِبْلِيسَ بِالنَّارِ وَقَدْ خُلِقَ مِنْهَا؟" فَأَخَذَ سَيِّدُنَا الشَّافِعِيُّ بِلَبَنَةٍ مِنْ
طِينٍ وَضَرَبَ بِهَا الرَّجُلَ، فَتَوَجَّعَ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ سَيِّدُنَا الشَّافِعِيُّ: "إِنَّ الطِّينَ خُلِقَتْ
مِنْهُ وَقَدْ أَوْجَعَكَ، فَلَا تَتَعَجَّبْ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى تَعْذِيبِ مَخْلُوقٍ بِمَا خُلِقَ مِنْهُ".

* الْقُدْوَةُ الْحَسَنَةُ وَالْأَمَانَةُ: لَيْسَ الصَّلَاحُ مُجَرَّدَ عِبَادَةٍ شَخْصِيَّةٍ، بَلْ هُوَ سَبَبُ الْبَرَكَةِ
فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ. فَالْأَبُ الصَّالِحُ هُوَ أَوَّلُ مُعَلِّمٍ فِي حَيَاةِ أَبْنَائِهِ، وَأَفْعَالُهُ هِيَ الَّتِي
يَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا حُبَّ اللَّهِ.

فَاللَّهُ الَّذِي حَفِظَ كَنْزَ الْيَتِيمَيْنِ بِسَبَبِ صَلَاحِ أَبِيهِمَا، سَيَحْفَظُ لَنَا أَبْنَاءَنَا وَأَحْفَادَنَا إِنْ
غَرَسْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْيَقِينَ، وَاجْتَهَدْنَا فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ.
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.